مجتمع المعلومات

دراسة فى الاستمرارية والتغير (*)

عرض وتحليل
عبد الرحمن فراج
مدرس مساعد بقسم المكتبات والوثائق
جامعة القاهرة – فرع بنى سويف

هذه هى الطبعة الثانية من كتاب «مجتمع المعلومات» لجون فيزر ، أستاذ دراسات المكتبات والمعلومات بجامعة لافبرا ، والقائم بأعمال نائب رئيس الجامعة نفسها ، والكتاب من إصدار قسم النشر بجمعية المكتبات البريطانية ، ونشرت طبعته الأولى عام ١٩٩٤ ، بينما نشرت إصدارة أخرى للطبقة نفسها عام ١٩٩٧ .

والكتاب نشأ فى الأصل ، كما يفيد المؤلف فى مقدمة هذه الطبعة الثانية ، من المحاضرات التى ألقاها لبضع سنوات لطلاب المرحلة الجامعية الأولى بقسم دراسات المعلومات والمكتبات بجامعة لافبرا . ويأمل المؤلف فى أن يكون هذا الكتاب مفيداً لهؤلاء الذين يبدأون دراسة المكتبات والمعلومات ، وذلك بتقديم مناقشة للإطار التاريخى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى لهذا الموضوع . بيد أنه ليس كتاباً دراسيًا ، وإنما هو محاولة للأخذ بأيدى الدارسين الجُدد فى المجال إلى بعض جوانب ودلالات مجتمع المعلومات .

ويرى المؤلف أننا لا نستطيع فهم ما يُسمى «بمجتمع المعلومات» الذى نعيش بين جنباته اليوم، إلا بفهم كيف كان يتم تجميع المعلومات وتحليلها وبثها فى الأزمنة الماضية ، وأنه ينبغى علينا التمييز بين التغيرات السطحية التى تتصل بتطورات التقنية فحسب ، وبين التحولات الكبرى فى النموذج الإرشادى أو الوجهة العلمية Paradigm للاتصالات الإنسانية والتى حدثت ثلاث مرات فى تاريخ البشرية ، والمرة الثالثة منها ، والتى لا زالت مستمرة بيننا هى ما نطلق عليه «مجتمع المعلومات» .

وفيما يتصل بالعنوان الشارح للكتاب ، يرى المؤلف أن مجتمع المعلومات يتسم بسمتين أساسيتين : الاستمرار فى الاهتمام بالمعلومات

(*) Feather, John. The information society : a study of continuity and change. 2nd ed. London : Library Association Publishing, 1998. Vi, 218 p. ISBN 1-85604-269-3.

وأساليب اختزانها واسترجاعها ، والتغير – أو التطور – فى هذه الأساليب .

ويتعرض الكتاب لثلاثة جوانب أساسية فى تطور مجتمع المعلومات ، هى الجانب التاريخى ، والاقتصادى ، والسياسى . بينما يشتمل الكتاب على سبعة فصول ، نجد كل جانب من الجوانب السابقة يحتل فصلين كاملين متتاليين ، إضافة إلى فصل أخير عن مهنة المعلومات . ويسبق فصول الكتاب تمهيد للطبعة الثانية ، ثم مقدمة مطولة . فيما يلى فصول الكتاب كلمة ختامية عن ماهية مجتمع المعلومات ، ثم إشارة مجملة إلى القرارات الإضافية Further Reading ذات الصلة بموضوع الكتاب ، وأخيراً الكشاف النسبى للكتاب . ونلاحظ فيما يتصل بإشارة المؤلف إلى القرارات الإضافية ، نجد أن الكتاب نفسه – فيما عدا ذلك – يخلو تماماً من المراجع أو الإشارات المرجعية . ولعل هذا ما يضع الكتاب فى دائرة الكتب التقديمية .

فى المقدمة الرئيسية للكتاب بعنوان «مجتمع المعلومات بين الحقيقة والأسطورة» ، يرى المؤلف أن المجتمع المعتمد على المعلومات نشأ من الثورة التى يطلق عليها البعض «الثورة ما بعد الصناعية» . إلا أن بذور الموضوع تعود إلى ماهو أبعد من ذلك ، إلى نشأة الكتابة واختراع الطباعة وتطور نظم الاتصال ، وهذا هو الجانب التاريخى للاهتمام بالموضوع . وثمة جانب ثان اقتصادى ، ويتصل بالموارد ، التى يمكن بها استيعاب نظم الاتصال والمعلومات فى التنظيم الاجتماعى والاقتصادى للمجتمعات المختلفة . أما الجانب الثالث فسياسى ، حيث تُثمن المعلومات بما هو أكثر من تكلفة إنتاجها وتوزيعها ، ونتج عن ذلك أن القوة الحقيقية الآن تنشأ من حيازة المعلومات ، فيما يؤدى غياب المعلومات إلى الوهن والنزول عن عرش السلطة .

ويُعد المدخل التاريخى للموضوع ، فى الفصلين الأول والثانى ، محاولة لتتبع تاريخ اختزان المعلومات وإيصالها واسترجاعها ، وذلك على مستوى كل من الوسائط والتقنية .

فى الفصل الأول «البعد التاريخى : من المخطوط إلى المطبوع» ، يتتبع المؤلف نظم الكتابة المختلفة حتى نشوء الأبجدية ، والتى خلفت جميع ما سبقها لتكيفها ومرونتها فى حفظ اللغات التى نفكر ونتكلم بها . إلا أن الأبجدية ، بالضرورة لايمكنها التعبير عن كل ما يمكن للعقل البشرى إبداعه ، ولذلك فقد تطورت نظم التسجيل إلى تسجيل الصوت ، والأرقام ، والعرض البصرى للحجم واللون والشكل (الرسوم) . كما تعرض المؤلف لأدوات الكتابة المختلفة فى العالم القديم ، ويرى أن أكثر مواد الكتابة إفادة – هى أكثرها مرونة وتعد الطباعة بمثابة ثورة الاتصالات الأولى فى التاريخ . وكان للطباعة تأثيرها الرئيسى على اقتصاديات الاتصالات ، لحاجتها إلى أجهزة لصنع المنتج المطبوع ، ونظم توزيع لبيع هذا المنتج . وكان تضخم صناعة نشر الكتب ، هو أول الظواهر على دخول الاتصالات عالم التجارة .

ويرى المؤلف فى الفصل الثانى «البعد التاريخى: وسائل الاتصال الجماهيرى والتقنية الحديثة» ، أن تطور وسائل الاتصال الأخرى – غير المطبوعة – والتى تنصب على الصوت ، والبصر ، والتحسيب Computing ، والتجميعات المختلفة بين كل ذلك،

هو المرحلة التاريخية الحاسمة فى هذا الموضوع . فتاريخ المعلومات والاتصال فى القرن الأخير هو ، إلى حد ما ، تاريخ تطور الأجهزة devices والنظم systems التى وسّعت من قدرتنا على الاتصال فى اتجاهين ؛ أولهما : أنها جعلت الاتصال أكثر سرعة وفعالية ، وثانيهما – وهو الأكثر أهمية – أنها وسّعت من مدى عملية الاتصال هذه . إن أجهزة تمثيل الظاهرة البصرية – مثل التصوير الفوتوغرافى والأفلام السينمائية وأفلام الفيديو ، والأجهزة التى أدت إلى تسارع نقل المعلومات – مثل التلجراف والهاتف والإذاعة والتليفزيون ، أصبحت – كأدوات اتصال – المكونات الأساسية لمجتمع المعلومات .

هذا بينما يُعد الحاسب الإلكترونى هو الفصل الأخير فى هذه الرواية التاريخية الطويلة ، ويمكن القول بأن الحاسب الإلكترونى قد جمع بين جنبيه كثيراً من تطورات ماضى الاتصال ، فقد كان بالفعل نقطة التقاء تقنيات الاتصال ، للدرجة التى أتاحت لنا توحيد عمليات التحسيب، مع الاتصالات بعيدة المدى وأتمتة النصوص والصور ، مما فتح أمامنا باب نقل البيانات عبر أرجاء العالم فى التو واللحظة.

ويحتل المدخل الاقتصادى للموضوع الفصلين الثالث والرابع من هذا الكتاب . ويأتى الاهتمام بالناحية الاقتصادية ، من وجهة نظر المؤلف ، نتيجة السيطرة المتزايدة للتقنية على عمليات الإمداد بالمعلومات وخدمات تسليم المعلومات .

ويتعرض المؤلف فى الفصل الثالث «البعد الاقتصادى : سوق المعلومات» ، لصناعة النشر التى تُعد النموذج الإرشادى لتداول المعلومات ، والعلاقة بين المؤلفين والناشرين ، وتنوع عمليات النشر بين الأعمال العلمية والخيالية وتأثير ذلك على سوق النشر ، ودور المحررين فى عملية النشر ، والاتجاهات الحديثة فى النشر باستخدام تقنيات المعلومات ، وأثر الحاسبات الإلكترونية فى ذلك ، وبزوغ وسائط معلومات تعتمد على تقنيات بذاتها ، وكيفية تحديد حجم سوق النشر بالتركيز على كل من المملكة المتحدة والولايات المتحدة .

ويدور الفصل الرابع «البعد الاقتصادى : الوصول إلى المعلومات» حول أسعار الكتب وتكلفة وسائل الاتصال الأخرى من الصحف والإذاعة والتليفزيون ، وتكلفة الخدمات التى تقدمها المكتبات العامة ، ومدى اعتبار الخدمات المقدمة عن طريق وسائل الاتصال المختلفة سلعة مجانية موجهة لعموم الناس أو ربحية موجهة لخاصتهم ، والربط بين الاقتصاد والتقنية ، عن طريق حساب تكاليف الوصول إلى شبكات الاتصالات الإلكترونية ، وما أدى إليه كل من البريد الإلكترونى (الاتصال الفردى بين الأشخاص) وجماعات المناقشة (الاتصال الجماعى) إلى تغيير كثير من مفاهيم الاتصال بين الناس ، ومدى ما يمكن أن تقودنا إليه شبكات المعلومات – بذلك – من ديمقراطية حقيقية ، ثم ملامح المستقبل كما ترسمها لنا شبكة العنكبوت العالمية www ذات الدلالات الهائلة على مستقبل الإمداد بخدمات المعلومات والوصول إلى المعلومات ، ومدى ما يمكن أن يؤدى إليه النشر الإلكترونى من نموذج إرشادى جديد Paradigm .

ويرتبط البعد السياسى بالبعد الاقتصادى أيما ارتباط ، فليس هناك شك فى تأثير الغنى والفقر على مدى الاستقرار السياسى للدول ، ولقد أصبح

الوصول إلى المعلومات واحدة من بؤر الصراع بين المجتمعات ، ومقياساً دالاً على مدى نجاح هذه المجتمعات أو إخفاقها . ويخصص المؤلف الفصلين الخامس والسادس لمناقشة الجانب السياسى لمجتمع المعلومات ، حيث يعالج قضايا ومشكلات مجتمع المعلومات فى سياق الدول ذاتها ، خاصة دول العالم الثالث وأوروبا الشرقية .

ويفيد المؤلف فى الفصل الخامس «البعد السياسى : غنى المعلومات وفقر المعلومات» أنه على الرغم من أن مزيداً من المعلومات أصبح أكثر إتاحة لكثير من الناس فى نصف القرن الماضى ، إلا أن تكلفة الحصول على التقنية وتكلفة الوصول إلى المعلومات Access جعلتا من الصعب – وفى بعض الأحيان من المستحيل – التحصل على هذه المعلومات من قبل المستفيدين المحتملين منها ، وأنه ربما كان ذلك هو المأزق السياسى الرئيسى فى مجتمع المعلومات . ويتعرض المؤلف فى هذا الفصل لمفهوم قيمة المعلومات ، ووضعية المعلومات والوصول إليها فى الدول النامية ، والمعلومات والتنمية الاقتصادية بين الوفرة والفقر ، وتأثير نظم تسليم الوثائق ، وصناعة النشر العالمية بين الشمال والجنوب ، وأنماط الفقر المغايرة فى أوربا الشرقية ، ثم حدود الوفرة وفقر المعلومات فى بعض مناطق العالم الغربى (مثل مناطق الأقليات) .

ويناقش الفصل السادس «البعد السياسى ، المعلومات ، والدولة ، والمواطن» مدى تهديد الفجوة السابق الإشارة إليها للعلاقة بين الدولة ومواطنيها . ويتعرض المؤلف هنا لدور الدولة كمشارك رئيسى فى عمليات تداول المعلومات ، من حيث إصدار تشريعات حماية الملكية الفكرية ، وحماية البيانات الشخصية ، والعمل على حرية تدفق المعلومات ، وفرض مستوى محدد من السلطة الأخلاقية عن طريق الرقابة على المطبوعات والإصدارات ، وبعض القضايا المعاصرة الأخرى ذات الصلة .

ويأتى الفصل السابع والأخير عن «مهنة المعلومات» ليعالج دور اختصاصى المعلومات فى مجتمع المعلومات الحديث ، فاختصاصيو المعلومات، كوسطاء بين مصادر المعلومات ونظم المعلومات – والمستفيدين من المعلومات ، يمكن أن يلعبوا دوراً أساسياً فى مجتمع المعلومات – ويذكر المؤلف هنا أن النموذج التقليدى لكل من المكتبيين والمكتبات قد دخل مرحلة التحول ، وذلك منذ منتصف السبعينيات حيث التغير أصبح أكثر سرعة وعمقاً . فعلى المكتبيين إذنً أن يكتسبوا مهارات وأساليب جديدة ؛ للتعامل مع أنماط التغير فى التقنية وفى اتجاهات المستفيدين نحو التعامل مع المعلومات والإفادة منها .

ويأتى المؤلف بعد فصول الكتاب السبعة بكلمة ختامية فى أربع صفحات عن ماهية مجتمع المعلومات ، يفيد فيها أننا يمكننا اعتبار مجتمع المعلومات هو المجتمع ، الذى قام على تطوير تقنيات المعلومات وأشرف على تعلم الإفادة منها .

وبعد .. فإننا نرجو أن نكون قد وفقنا فى اختيار هذا الكتاب لمراجعته وتقديمه للقارئ العربى ، والذى من الطبيعى أن يحاول إسقاط القضايا والمشكلات المثارة فيه على مجتمعاتنا العربية ، وتلمس نقاط التشابه والتباين ، وتكوين صورة مصغرة عن مدى قرب المجتمعات العربية من مجتمعات المعلومات الحقيقية .